# الحسين بن على [1]

بقلم الدكتور

عبد الرحمن شهبندر

— ٢ —

لما أعلنت الحرب العامة ، ورأى الحسين بن على الخطر المحدق بالدولة من دخولها غمارها ، وقدر شأن انعزال بلاد العرب عن سائر أجزاء المملكة ، لم تسمح له ذمته بأن يجارى صبيان الاتحاديين فى مغامرتهم ، لذلك كان جوابه لمجلس الوزراء فى الاستانة ، انه لا يوافق على اعلان حرب تستهدف بها البلاد لأشد الأخطار ، وقال لوهيب باشا والى الحجاز ، إنه لا يقر اعلان الجهاد المقدس من على منابر بيت الله ، خشية أن تكون نتيجته مهزلة وعاراً ، كأنه قرأ فى صحف الغيب أن انكلترة ستجند الهنود فتفتح بهم العراق ، وتدفع بواسطتهم جيوش الخليفة عن ترعة السويس . وأنها ستنظم العمال المصريين ، فتمد بسواعدهم القوية سكة حديد سينا لتصل بها إلى الحرم الثالث والرابع ، وأن الفرنسويين سيجيشون التونسيين والجزائريين والمراكشيين فيدفعون بهم جيوش الألمان عن باريس وفردون . ومما لا شك فيه أبدا أنه لو كان العقلاء أمثال المشير عزت باشا ، هم القابضون على زمام السلطنة فى تلك الايام العصيبة ، لقبلت نصيحة الحسين ، وما أسفكت تلك الدماء ، ولا مزقت تلك الأوصال ، ولكان لنا شأن مع الترك الأحرار الصادقين ، لا الدجالين المنافقين ، غير شأننا اليوم .

شهرت الدولة الحرب فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٤ باعتذار انتحلته عن مهاجمة الاسطول الروسى للاسطول العثمانى ، وما موقد نارها فى الواقع الا الاميرال سوشون قائد الدارعتين جوبن وبرسلو ، بما أتاه من التعدى الفجائى على أساكل الروس وسفن الحلفاء . وقد سمعت من سمو الامير عبد الله أن أول ما لاحظه والده من سوء نية الاتحاديين ، هو أن أنور باشا أصر عليه بوجوب سحب القبائل العربية الى جبهة القفقاس ، لمحاربة الدولة الروسية بدلا من إبقائها رابضة فى أماكنها ، فكانت هذه الغاية مماثلة لغاية جمال باشا لما أمر فى أوائل سنة ١٩١٥ بحل تابور الضباط السوريين الذين كانوا فى الخدمة المقصورة ، وبعثرتهم فى الانحاء .

(١) راجع الجزء الرابع الذى صدر فى أغسطس سنة ١٩٣١ من هذه المجلة .

وهذه الغاية هى اخلاء البلاد العربية من القوى المحاربة التى يخشى بأسها الاتحاديون وحشدها على حدود الأقطار التى تضم عناصر الجامعة الطورانية .

ثم أخذت علائم الساعة وأشراطها ، تبدو فى كل مكان من بلاد العرب بسط عليه الاتحاديون رواقهم ، من تسخير وتعذيب وإجاعة وإجلاء ، الى ضرب وتدمير وصلب وتقتيل ، حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع . ولما سيق رجالات العرب الى المشانق أفواجا أفواجا ، نفخ فى الصور فبعثت الهمم من مراقدها ، وغضب الحسين بن على غضبة هاشمية مضرية ، فصاح بين أسوار مكة صيحة ارتعدت لها الفرائص ، واسودت لها وجوه السفاحين وزبانيتهم وجواسيسهم وابيضت لها وجوه العرب وأنصارهم . ثم مشينا على الصراط متكئين على رماحنا وسيوفنا وبنادقنا من غير تثاقل ، حتى دخلنا الشام ، جنة الله فى أرضه ، فكان حساب ، ولكن من غير عقاب ، لأن شيمة أحفاد من أسس مجد العرب ، أن يصفحوا حتى عمن خان عهد العرب من أبناء العرب .

ولايفاء الثورة العربية حقها من المكانة التاريخية ، وشأن معلمها من العزم والاقدام لابد من الاحاطة ببعض الأحوال التى كانت تكتنفها ، فقد أعلنها الحسين وسحب اعلامها لما كانت الجيوش الألمانية على عظمتها وأبهتها فى الميدان الغربى فى بلجيكا وفرنسا . فى الميدان الشرقى كانت قد مزقت شمل الروس واحتلت فرسوفيا بعد ما ضربتهم الضربة القاضية فى بحيرات مجوريا ، فأخذت منهم مائة ألف أسير ، وأما فى غاليبولى فكان الانكليز قد انهزموا شر هزيمة ، وانسحبوا منها بعد ماخسروا خسارة جسيمة فى أسطولهم ، وتركوا من القتلى ما يربو على مائة وخمسة عشر ألفاً فى مدة لا تتجاوز ثمانية أشهر . وكان الجنرال تونزند قداستسلم فى كوت الامارة من بلاد العراق فى أواخر ابريل سنة ١٩١٦ ، واستسلم معه ١٣ ألف أسير ، وكان جيش الصاعقة على أهبة التنظيم فى حلب ، والقائد فون كرسنشتين يعد جيشا لجبا لاكتساح وادى النيل من شبه جزيرة سينا . أما فى الحجاز فكان وهيب باشا قد انسحب وحل محله غالب باشا ، فكان عدد الجيش العثمانى هناك لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً ، منهم قسم كبير فى مكة فى قلعة ( جيـاد ) يشرفون على الحطيم وزمزم . وكان فخرى باشا يستجمع قواه فى المدينة ، ويضم حوله جيشا عرمرما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألفاً .

هذه كانت الوضعية الحربية بالاجمال ، وهى قاتمة سوداء تدل على رجحان كفة الالمان وحلفائهم الاتحاديين فى كل مكان ، وأقتم منها تلك المظالم والمغارم والمشانق والمجاعات ، التى كانت تهدد كيان العرب فى عقر دارهم . وقد حاول الاتحاديون أن يمدوا يدهم بشدة الى الحجاز أيضاً ، فعلاوة على ارسالهم الفيلق الجديد الى المدينة بقيادة فخرى باشا، أوقفوا إرسال الزاد والأطعمة من سورية الى الأراضى المقدسة ،وكانت أبواب البحر موصدة دون الحجازيين من جراء الحصار البحرى الانكليزى الآخذ بالخناق ، فضاقت بهم سبل المعيشة حتى باع بعضهم سقف داره للحصول على بلغة من العيش تسد الرمق ، وحتى عذرهم على انتقاضهم رجل مسئول مثل على فؤاد باشا ، رئيس أركان حرب السفاح .

ومع كل هذه الأحوال غير الملائمة والمضعفة للعزيمة ، فان الحسين وأشباله، الذين وضعوا لبان الثورة للحق على البـاطل ، لم يحجموا عن دق الطبول وسحب الاعلام رفعاً للضيم وانتصاراً للحق ، فنازلوا السفاحين بأقل عدد من شراذم البدو، وأضعف سلاح من مختلف الأشكال ، فكانت لهم الغلبة على عبدة الذئب الأبيض ، من منافقى الاتحاديين ، كما كان لجدهم الأكبر على المشركين من عبدة الأوثان ، فنادى المنادى من أطراف الحجاز الى مشارف الشام بصوت عربى مبين ، رددت صداه الوهاد والجبال والغور والانجاد « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ذلك لأن الظلم مرتعه وخيم ، والأمم تستكين وتتحمل الأذى وتصبر على الضيم، ولـكن الى حين ، وقد لا يبدو عليها التذمر ، ولا يلاحظ فى وجهها الضجر إلا أنها متى انفجرت ، قطعت السلاسل وحطمت القيود ، وكانت كالسيل العرم يجرف ما يقف فى سبيله من العقبات إلى أن يستقر فى مكانه .

استتب الأمر للحسين ، وعقـد العرب آمالهم على المليك المفدى وعلى عزيمته الصادقة ولـكن فى سنة ألف وتسعمائة وواحد وعشرين ، هبط جدة ضابط بريطانى حزقه قصير برأس كبير، يحمل مشروع معاهدة من وزارة الخارجية البريطانية ، فيه طلب الاعتراف من الحسين بالتمزيق الذى حصل ، والانتدابات التى فرضت ، مقابل ذلك ضمانة الانكليز لاستقلال الحجاز وسلامة العرش الهاشمى فى بيت الله . فأبى الشيخ الجليل أن يبيع دينه بدنياه ، ويبنى لنفسه مجدا شخصياً على جماجم أبناء عمه فى فلسطين وسورية والعراق ، فرد الـكولونيل لورانس رداً قبيحاً ، ولسان حاله يقول : عجباً لـكم يا بريطانيون ! تحاربون ألمانيا لأن

بثمن هولويج ، قال عن المعاهدات إنها قصاصات من الورق ، وتحاربوننا لأننا نقول إنها ألواح من المهج ؟

وهل الأمم تطالب بشرف المعاهدات فى أوربا ولا تطالب بشرف المعاهدات فى آسيا ؟ مع أن كتابنا لم يفرق بين القارات والألوان والأجناس والأديان ، لما أمرنا بانجاز العهود وعدم الاخلاف بها ، فقال فى الآية الرابعة والثلاثين من سورة الاسراء « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »

وبعد ثلاث سنوات من هذه الزيارة ، هجم الغطغط حلفاء الانكليز على الحجاز ليطهروه من أدران الشرك وأوزار الخيانة ، فمحوا باسم دين الرأفة رقاب أهل الطائف نساء ورجالا وأطفالا ، بصورة تقشعر من هولها الأبدان ، ولا تشرف سكان الجزيرة كثيراً ، فدب الرعب فى قلوب الناس فى أم القرى ، فهاموا على وجوههم يطلبون لهم ملجأ حتى خلت القصور من ساكنيها ، والطرقات من عابريها ، وزحف المقعدون على بطونهم لا يعرفون أين المفر ؟ وكان زعيم من بنى الأطرش المجاهدين ، حاضرا فى البلاط يومئذ فقال « ولما أحسسنا بالشر على الأبواب تواقعنا على الملك حسين ، نرجوه أن يخرج معنا ، فأبى أن يفارق موطن الآباء والجدود ، ولما اشتدت الجلبة والغوغاء ، لم نعد نملك قياد أنفسنا ، فخرجنا هائمين كغيرنا نطلب لأنفسنا السلامة ، لكن الشيخ الوقور صاحب اللحية البيضاء الناصعة بقى بعدنا ، وما أظنه خرج الا بعد ما سمع وقع أقدام الغطغط على أبواب القصر »

لقد حاول أنصار جمال باشا السفاح ، أو الذين آمنوا بالدعايات الاتحادية ، أن يهزأوا بكلمة «المنقذ» التى لقب بها ، ظناً منهم أن مؤسسى تورك أوجاغى ، ومؤيدى أتيلا وجنكيز وهولاكو وتيمور ، والمؤمنين بالبيسة وبعبادة الذئب الأبيض ، كانوا هائمين بالاسلام ، متفانين فى حب الخلافة ، لما نعوا على الحسين ثورته وشقه عصى الطاعة ، وشنعوا عليه فى أصدق ميزاته ، ولم يدر فى خلدهم أن شهر حزيران من سنة ١٩١٦ ، كان ختام شهور المشانق التى نصبت لزعماء العرب ، والمناطق التى أخليت لاجلاء البيوتات والأسر فى سورية والعراق . وإن لم يعترف غيرنا بأنه كان منقذاً . فنحن نشهد أهل الأرض والسماء ، بأن العلم الذى سحبه فى شعبان فى أم القرى ، أنقذنا من أفظع سفاح شهدته بلادنا فى القرون الحاضرة .

والانقاذ أنواع : منه انقاذ من الوثنية ، وانقاذ من الجهل ، وانقاذ من العبودية ، وانقاذ من الاستعمار ، كما أنقذ الغازى الترك من أوروبا ، ولا شك أن الانقاذ من الهلاك المحتم

فى المادة والمعنى إنقاذ ما بعده ، إنقاذ . وحسبى أن يشهد بصحة كلامى ، أبناء بلادى وأقرباء الشهداء من رجالات العرب ، والذين تجرعوا غصص الجوع والعطش والنفى والعذاب ، ولا سيما تلك النخبة المنتخبة ، من سجناء خان البطيخ العاصمة الأموية .

على مثل تلك الحالة القاتمة ، المحفوفة بأخطر الاحتمالات التى شرحناها ، دخل الحسين فى الثورة العربية وهو فى سن الخامسة والستين . وبمثل هذه الحالة المقبضة التى وصفناها ، خرج من الثورة وهو فى سن الخامسة والسبعين . وفى الديار الشامية التى أحبها ، فارق دنياه وهو فى سن الثمانين .

وقد يكون للرجل فى سنه وفى منشأه وفى بيئته ، خطيئات عظيمة لامفر منها ، وقد يكون له فضائل لامثيل لها . وقد يعيش أميراً فيصير صعلوكا ، ويجلس على العرش فينام من غير فرش . ويمتطى الجياد الى الجهاد ، كما يركب البواخر إلى النفى والابعاد . ولكنه من غير شك عاش على العهد ، ومات على العهد . نعما كبيراً ، وذبل كبيراً ، وليت شعرى من أحق منه بالصدق والعزيمة والثبات ، وهو هو حفيد أخلص نفس ، وأثبت مبدأ ، وأصدق رجل : — حفيد من قال لأبى طالب منذ أربعة عشر قرناً « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ؟

عبد الرحمن شهبندر

---

## بماذا تطول مدة الملك ؟

يقال فى بعض كتب الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها :

« إن الملك تطول مدته إذا كانت فيه أربع خصال :

إحداها ، أنه لا يرضى لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه ؛

والاخرى ، أن يجعل ولى عهده من ترضاه وتختاره رعاياه لامن تهواه نفسه ؛

والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية ، فحص المرضع عن منام رضيعها . »

وقد نجد مصداق هذا القول ونشهد به . وذلك انا لم نر مدة طالت لملك عربى ولا عجمى قط إلا لمن فحص عن الأسرار ، وبحث عن خفى الأخبار ، حتى يكون فى أمر رعيته على مثل وضح النهار ؟ (عن كتاب : التاج فى أخلاق الملوك)